

الأسس الحضارية للمسألة الاقتصادية عند مالك بن نبي سميرة كرمين¹

1- جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر

Samira.kermine@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2025/07/07؛ تاريخ القبول: 2025/09/13

The civilizational foundations of the economic issue according to Malek Bennabi□

Kermine

Abstract: This study aims to identify the most important economic ideas presented by Malek Bennabi to achieve economic development based on civilizational foundations. Civilizational construction is one of the most important issues that occupied the thinker Malek Bennabi, as he formulated his ideas, theories and plans in an effort to find ways to advance the economy in the Arab-Islamic world and address the depth of its problems within the framework of his books on the problems of civilization, emphasizing that the problem of any people is essentially a problem of civilization. He began by diagnosing the idea of backwardness and decadence and their relationship to colonialism, arriving at the construction of a civilization that relies on stimulating ideas from within its cultural system, through which societies can charge their moral and human energies to enter into a new civilizational cycle rooted in its reference and foundations of a purely religious nature, while societies that import things from another civilization to establish a similar civilization, this leads to concealment due to blind imitation.

Keywords: civilization; Economic ideas; Civilizational construction; economic development; decadence.

الملخص:

الهدف من هذه الدراسة هو الوقوف على أهم الأفكار الاقتصادية التي جاء بها مالك بن نبي لتحقيق التنمية الاقتصادية بأسس حضارية، لأن البناء الحضاري يعد من أهم القضايا التي شغلت اهتمام المفكر مالك بن نبي، حيث صاغ أفكاره ونظرياته وخططه، سعياً منه إيجاد سبل للنهوض بالاقتصاد في العالم العربي الإسلامي وعلاج عمق مشكلاته، وذلك في إطار كتبه لمشكلات الحضارة، مؤكداً أن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارة، فانطلق بتشخيص فكرة التخلف والانحطاط وعلاقتهما بالاستعمار، وصولاً إلى بناء حضارة تعتمد على أفكار محفزة من داخل منظومتها الثقافية وتتمكن من خلالها المجتمعات من شحن طاقاتها المعنوية والبشرية للدخول في دورة حضارية جديدة متأصلة في مرجعيتها وأسسها ذات طابع ديني محض، بينما المجتمعات التي تستورد أشياء حضارة أخرى لإنشاء حضارة مماثلة فهذا يؤدي للإخفاء بسبب التقليد الأعمى.

الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ الأفكار الاقتصادية؛ البناء الحضاري؛ التنمية الاقتصادية؛ الانحطاط.

مقدمة:

تعد أهم التحديات التي تواجه العالم المشكلات الاقتصادية من الإسلامي اليوم، فالتخلف الاقتصادي زاد من هوة التأخر للحاق بركب التقدم الحضاري العالمي، فالمشكلات الاقتصادية لا تتمثل في الندرة الاقتصادية ولا في الموارد المالية ولا في طبيعة المجتمعات، وإنما المشكلة الاقتصادية الحقيقية للمسلمين هي التبعية الاقتصادية للغرب، وهي ظاهرة مرضية تنخر الاقتصادات العالمية، وتشكل خطرا يرهن السيادة الوطنية كون أن الاستعمار لا يزال يضغط بصوره على الدول المستعمرة سابقا بدرجات متفاوتة، لأنها لم تنتهج نهج النظرية الاقتصادية حسب ما تتوفر عليه بيئتها وامكاناتها ومتطلباتها، وإنما اندفعت نحو مشروع اقتصادي أجنبي مبني على أسس اجتماعية مختلفة.

اعتمد المفكر مالك بن نبي في تحليله وتفسيره للمسائل الاقتصادية على الشريعة الإسلامية، وربط استنتاجاته بالضوابط والمبادئ التي يقوم عليها الفقه الإسلامي، رافضا لفكرة تدخل أي مذهب في ذلك، معتبرا أن المواضيع الاقتصادية تأخذ الطابع التقني البحث، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالتفكير الأخلاقي الإنساني وأطلق عليه تسمية الاقتصاد الديني أو الاقتصاد الأخلاقي، انطلاقا من المقاربة التاريخية التي تلزمنا حسبه إلى إعادة قراءة التاريخ للوصول إلى أسباب الانحطاط والتخلف ومعرفة حجم هذا الانحطاط.

يرى أن مسألة التنمية الاقتصادية للأمة تنطلق من مكونات الحضارة الإسلامية وأن العقيدة الدينية هي المحرك الأساسي والدافع الرئيسي لنمو

وتطور الأمم وبناء الحضارات، وأن استمرار النهوض يتوقف على مدى الاعتماد على الأفكار الدينية، وعليه فإن البناء الاقتصادي يكون من خلال تجسيد مشروع اقتصادي الذي يعد جزءا مهما من المشروع الحضاري، انطلاقا من بناء الإنسان وتنمية قدراته الذاتية والأخلاقية، واستثمار في الطاقات البشرية إلى جانب الموارد الطبيعية المتوفرة لبناء اقتصاد متكامل، بعيدا عن النماذج الرأسمالية والماركسية.

وفي ضوء ما تقدم تتضح لنا معالم إشكالية البحث التالية:

إلى أي مدى يمكن للأفكار الاقتصادية التي جاء بها مالك بن نبي أن تحقق النهوض الحضاري في المجتمعات الإسلامية؟
وللإجابة على الإشكالية تم اقتراح الفرضية الآتية:
لتحقيق النهوض الاقتصادي في المجتمعات الإسلامية يتطلب تحرير الأفكار من التبعية الغربية وتفاعلا لعناصر الثلاث: الإنسان والتراب والوقت.

العلاقات الاقتصادية في العالم عند مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أن العلاقات الاقتصادية في العالم تتسم بالاختلاف الكبير لمفهوم الاقتصاد في المجتمعات الغربية والشرقية في الحياة الاجتماعية، فالمجتمعات الغربية جعلت من مفهوم الاقتصاد حجر الأساس والمنطلق لجميع أوجه النشاطات في المجتمع، والتي نتج عنها تحديد دقيق لمفهوم المنفعة كلبنة أساسية في بناء الرأسمالية ومفهوم الحاجة عند النظرية الماركسية، أما المجتمعات الشرقية تطوّر مفهومها عن الاقتصاد وعرف بالاقتصاد الطبيعي غير منظم، فبدلا من الاهتمام بالاحتياجات الداخلية

لتطبيق النظرية الاقتصادية الرامية إلى تلبية الاحتياجات وتحقيق المنفعة، تم التمسك بالفكرة النفسية المنعقدة على الزهد التي سيطرت على تغييره من نظراته للمفاهيم المنفعة والحاجة إلى مفهوم الزهد، والتي نجم عنها الابتعاد الكلي على تطبيق النظرية الاقتصادية، والتخبط في حقائق يصعب فهمها واستيعابها.

حسب مالك بن نبي أن المسلم فتح عينيه في عالم الاقتصاد مليء بالصدمات الاستعمارية، لم يكن منتج يرفع حقوقه ولا مستهلكا الذي ترفع حاجاته، لقد كان أداة عمل فقط ولم يتكون لديه وعي اقتصادي، واعتمد على تقليد الآخر دون أن يفكر في المساهمة صنع ووسائل تشبع حاجاته، ما أفقده وعيه الحضاري، وكان يبذل كل جهده من أجل تلبية طلبات المستعمر لتوفير حاجاته في مجال الاقتصاد، فلم يسهم المسلم في تلك الفترة في بناء اقتصاد إسلامي لتحقيق الاكتفاء الذاتي الذي يعود للأمة بالتقدم والازدهار، فاستلزم الوضع تدخل النخبة المثقفة في المجال الاقتصادي لمعالجة أسس علم الاقتصاد، لكن كان موقفها اختياري وتفضيلي بين الليبرالية (آدم سميث)، والمادية (ماركس)، دون أن يكون الوقوف على أسباب الفشل أو وضع خطط لنجاح التنمية.

لقد أرجعت النظرية الماركسية المشكلة الإنسانية إلى العوامل الاقتصادية، وأن الظواهر الاجتماعية تفسر بالجانب الاقتصادي، ما جعل الشعوب الإسلامية تعيش في عصر الحتمية الاقتصادية بعد أن أصبحت تحت وطأة الاستعمار المستعبد والمستغل، والذي اعتبر الزمن الميت في النمو المادي لهذه الشعوب.

مشكلة التخلف الحضاري:

قابلية الاستعمار: تعتبر مشكلة قابلية الاستعمار مشكلة ذاتية بالدرجة الأولى لأنها تصدر من ذات الفرد، وذلك لأن البلدان الإسلامية كانت مهينة من قبل للاندماج في مثل هذه الظواهر الاجتماعية التي ترى فيها خلاصها الحضاري، وتقلد الغرب في كل شيء وكأنها ترى فيه النموذج المثالي الذي يحتذى به، كما قال مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة: ﴿إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها مواطن الضعف فسخرنا كما يريد، كصواريخ موجهة، إنه يسخرنا وأغراضنا لأغراضه﴾. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1987: 155)، ومن هنا يتبدى لنا جليا أن الأمة الإسلامية ما هي إلا أمة مسكونة بالتبعية الغربية، ما جعل بن نبي يرى أن تحقيق النهضة مستحيلا وصعبا على أمة يؤثر الاستعمار على الفرد من الخارج ليخلق منه نموذج الكائن المغلوب على أمره مع تضيق نشاط الحياة في البلاد المستعمرة حتى تكون مصوبة في قالب ضيق وذلك خوفا من أن تتيح الحياة المطلقة لمواهب الإنسان إلى النبوغ والعبقرية. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1987: 152).

وعليه جعل بن نبي من المعامل الاستعماري وقابليته من طرف النفوس المنحطة حاجزا من بين الحواجز والعقبات التي تشل حركة النهضة والتي ساهمت بدرجة موسعة في تفكيك بنايات الحضارة انطلاقا من طمس فاعلية الذات العربية الإسلامية وزجها في خندق العجز والتبعية العمياء والتخلف.

شروط التجسيد الحضاري لمنهج مالك بن نبي من أجل التنمية الهادفة:

يرى مالك بن نبي أن نقطة انتقال المجتمع من التخلف إلى التقدم والتطور يتطلب دخول المجتمع في دورة حضارية مستكملة شروطها المادية والمعنوية والمتمثلة في عنصرين أساسيين هما الإرادة الحضارية والإمكان الحضاري. (بريون فوزية، 2010: 200).

إن أفكار مالك بن نبي التي صاغها للنهوض الحضاري مستنبطة من الواقع الإسلامي المتأزم، حيث شخص واقع الإنسان المسلم ومعاناته بين محاولات المد الديني الإسلامي وصدمات الغزو الأجنبي الثقافي، وقد صاغ معادلة اجتماعية بصيغة رياضية وجاءت على النحو التالي: الحضارة = إنسان + تراب + وقت

مؤكدًا أن مشكلة الحضارة يمكنها أن تجد حلولًا انطلاقًا من ثلاثة أعمدة وظيفية، وهي مشكلة الإنسان ومشكلة التراب ومشكلة الوقت، وأن بناء حضارة لا يقوم على تكديس المنتجات وإنما بحل المشكلات الثلاثة من أساسها. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1979: 45)، لأن التكديس يتحول من نطاق الأحداث البسيطة الناتجة عن الصدفة إلى نطاق الفكرة الموجهة، وهذا حسب ما جاء به مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة: ﴿لقد سار العالم العربي في طريق الحضارة التي يسميها الناس الحضارة الغربية، وماهي إلا حضارة إنسانية استمدت أسسها من حضارات عديدة، ومنها الحضارة العربية الإسلامية، وساهم ويساهم في إغنائها شوقيون وغربيون ملاحدة ومؤمنون، ولا رجوع للعالم العربي عن هذا الطريق ولا نكسة﴾. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1987: 45).

فالمشكل في قيام الحضارة إما الحاجة إلى مؤسسات أو الحاجة إلى رجال ﴿يجب أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى﴾. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1979: 85)، وعليه فإن الإنسان في معادلة مالك بن نبي للحضارة هو مفتاح الإشكالية، وهو أساس البناء فيها وقوة المحركة للإرادة الحضارية والإمكان الحضاري.

مشكلة الإنسان: يعتبر محور كل فعل حضاري أو تاريخي، وأن أي محاولة تغييرية لا تجعل من الإنسان محورا لها، تعد قفزة من فراغ، وإن حركة الوجود كلها ناجمة عن علاقة الله خالقا وربا وبين الإنسان خليفته والكون ميدانا لفعل العمران، فدور الإنسان يحتل مكانا مركزيا في نظرية الحضارة هو يمثل الجهاز الاجتماعي الأول، فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، ومن هنا تساءل بن نبي كيف يمكن للإنسان أن يؤثر في محيطه، وماهي الوسائل والقدرات التي يؤثر الإنسان بواسطتها في مجتمعه؟

فحصر الطاقات الاجتماعية التي توجه الأفراد والمجتمعات في ثلاثة عناصر هي اليد والقلب والعقل، معتبرا أن كل طاقة اجتماعية تصدر من دوافع القلب وتوجهات العقل وحركات الأعضاء، ومن هذه العناصر المجتمعة تتولد الفعالية التي هي تعبير عن استيعاب الفرد لمسوغات وجوده، أما تأثير الإنسان في محيطه يكون انطلاقا من فكره وعمله وماله، ما يستلزم توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه المال. (بريون فوزية، 2010: 208-211).

مشكلة التراب: لا يقصد بالتراب المادي كما أخطأ الكثير من قراء مالك بن نبي، وإنما يقصد الشروط المادية، وهو ما يسمى بالإمكان الحضاري وهي

المقدرات المادية في شكلها البسيط كالأرض والجغرافيا، والتي تتمثل في مكان للبنين والصنائع المتنوعة ومنها تستمد الحضارة قوتها وازدهارها، ويرى مالك بن نبي أن التراب في أرض الإسلام يتميز بالانحطاط بسبب تأخر الأمة التي تعيش عليها، ويرجع ذلك إلى تحول الأرض الخصبة إلى فلاة ثم إلى صحراء، والذي يؤثر على الحياة الاقتصادية، التي تتحول حرف المعتمدة من الفلاحة إلى رعي ثم إلى لا شيء، وهذا التطور الطبيعي يفرض على الحياة البشرية اتباع هذه الدورة الجهنمية التي تبرز حجم ركود الحياة البشرية. مالك بن نبي، شروط النهضة، 1979، 133).

مشكلة الوقت: يقصد به المجال الزمني التي تظهر فيه الحضارات، يعبر عن قيمة معنوية لا تقاس بالساعات، وإنما يقاس بمدى التخطيط والاستثمار والتعامل مع الوقت بحكمة وتدبر الذي يولد حضارة قوية و متماسكة. وحسب بن نبي فإن الوقت يعد عاملا مؤثرا في الفكر النشاط، فالمجتمع المنخرط في أي دورة حضارية وكيف عامل الوقت ويحوّله إلى زمن مثمر حيث يدرجه في تخطيط المشروعات، وهذا لا يوجد في المجتمعات الإسلامية على الرغم من حث الدين على الاستغلال الأمثل للوقت على المستويين الفردي والجماعي. (بريون فوزية، 2010: 232-233).

يتبدى لنا أنه لابد من بناء الإنسان بناء متكاملًا ولاعتناء بالتراب والزمن لتكوين مجتمع أفضل يتمتع فيه الأفراد بالسعادة والضمانات الاجتماعية الكافية، وهذا لا يعني أن توجه البحوث نحو العناصر الثلاثة التي تبني بها الحضارة، وإنما على المجتمع أخذ من الحضارة الغربية الأدوات التي يحتاجها في بناء حضارته فمثلا استراد الآلات من الخارج في حالة عدم القدرة على

صناعتها محليا، والعمل على الاستغناء عنها مستقبلا، ومركزا على فكرة الاقتصاد في الإمكانيات حتى تكون لنا الفائدة أكبر. (مالك بن نبي، تأملات، 1979: 167)

أكد بن نبي أن للمشكلات الاجتماعية خصائص تاريخية، ما استوجب وضع حلول واقتراح مناهج انطلاقا من التاريخ، لأن استيراد الحلول يعد إضاعة للوقت، باعتبار أن هذه الحلول المستعارة من البلدان المتقدمة لا تحدث تأثيرا نفسه الذي أحدثته في بيئتها الأصلية، وهذا لا يدل أن الحضارات تتكون في نطاق منعزل وإنما تأخذ وتستفيد من غيرها، ولكن مجال الاقتباس ليس حرا ومطلقا، وإنما وفق شروط حيث شبه بعملية نقل الدم لجسم المريض، إذ لا يمكن تزويده بأي فصيلة وإنما مراعاة الفصيلة التي تناسبه، ويرجع مشكلات العالم الإسلامي إلى فوضى الأفكار وتخبط في السير وإهدار للوقت والطاقات، وذلك لفقدانه الصلة بنماذجه المثالية التي كونت منظومته الثقافية الأصيلة، وفي هذه الحالة فإن العالم الإسلامي لم يخن فقط نماذجه المثالية وأفكاره الجوهرية، وإنما حتى الأفكار التي استعارها من الحضارة الغربية. (بريون فوزية، 2010: 208).

الرؤية الحضارية للاقتصاد من منظور مالك بن نبي:

إن الاقتصاد حسب مالك بن نبي ليس إنشاء بنوك وتشديد مصانع، وإنما هو تشييد الإنسان وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات، وتجسيم للحضارة أي أنه يعبر عن الكميات والأرقام في مرتبة الثانية بعدما تبعث فيه الإرادة الحضارية الحركة والحياة، فالبناء الحضاري يكون بإعادة بناء الإنسان وتصحيح المفاهيم الخاطئة والتي تسود علم الاجتماع، وتحديد

المعنى الحقيقي للمجتمع، فالمجتمع ليس تكديس للأفراد كما شبه بن نبي أفراد المجتمع بالنحلة التي تنفصل عن خليتها مصيرها الموت، فالمصلحة هي التي تجمع وتنسق سلوك كل نحلة من الخلية، ولو انعدمت لسبب ما فإن الخلية ستمزق أي يضيع المجتمع وأفراده أيضا. (مالك بن نبي، تأملات، 1979: 157-159).

فعملية التغيير الفعلية تنطلق بتخلي الإنسان من عقد النقص والانهار بمظاهر ما يملكه الغرب هذا من جهة، ومن جهة أخرى التخلي عن الخرافات والتوكل، والعمل على إحداث توازن بين قناعاته وسلوكه وعقيدته وعمله، وانشاء فرد متحرر من القيود التي رسمتها العقول التي تنشر مفهوم الندرة، ومتحررا أيضا بفكره ليصبح قادرا لهوض بنفسه وبأتمته وهذا حسب قوله الله تعالى: بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (سورة البقرة الآية 30)، (إزولي محمود، 2020، 401)، فبناء الإنسان لا بد أن يكون في إطار حضاري ويشمل جميع المجالات كالالاقتصاد والثقافة والأخلاق وغيرها وتصفيته من قابلية الاستعمار، فالتعبير يكون انطلاقا من النفس للوصول إلى تغيير التاريخ مصداقا لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغير ما بأنفسهم﴾، إن عملية التغيير النفسي تعتبر بمثابة المرحلة التمهيديّة التي تسبق عملية النهضة الاقتصادية، التي ترافقها جملة الخطوات الإصلاحية من أجل تحقيق عملية الإقلاع الحضاري الذي يقوم بدوره على مبادئ الشريعة الإسلامية لتشكيل إطار حضاري للعالم العربي والإسلامي.

يرى بن نبي أن الصين تقدمت من الناحية الاقتصادية بصورة سريعة، لأنها اعتمدت على خطط لتنميتها، التي تعتمد على مبدأ الاتكال على الذات، وهو ما يسمى بالتعبير الاقتصادي الاستثمار الاجتماعي من الإنسان الصيني، والتراب الصيني والزمن المتوفر في كل أرض، كما استعملت مبدأ الاستفادة من التجارب الفاشلة، وعليه وضعت الصين كل تبعيات التنمية على كاهل الشعب، واستطاعت أن تعوض طاقاته الحيوية الموجودة فيه الطاقات الميكانيكية المفقودة، أي أنها استطاعت تعويض الجانب المالي بالجانب الاجتماعي ما جعلها تحصل على خبرة فريدة في العالم في مجال توظيف الإنسان والتراب والزمان، وعليه فإن العبرة للعالم الإسلامي عليه أن يغير من أوضاعه الاقتصادية بقدر ما يطبق من خطط تنمية تفتق أبعاده النفسية، التي تخلصه من العقد والخرافات والمسلّمات الوهمية.

وإن النهضة الاقتصادية لا بد أن تتضمن الجانب التربوي الذي يجعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى، باعتباره وسيلة من الوسائل التي تتحقق بها خطة التنمية، إلا أن في البلدان الإسلامية لا يمكن أن نضع الإنسان في هذه المرتبة، لأنه يعتبر وسيلة تتغير ذاتها في فعاليتها بقدر ما تحدث من التغيرات في نطاق النمو الاقتصادي، ما يتطلب منا أن نربط أفكارنا بواقعنا المعاش خصوصا في الجانب الاقتصادي، ونهتم بالاستثمار الاجتماعي. (مالك بن نبي، عالم الاقتصاد المسلم، 1987: 65-68).

وعليه فإن العملية التغييرية هي تحول عنصر الإنسان من حالته البيولوجية إلى شخص اجتماعي، وتحول الوقت من مفهومه الزمني يقيم بعقارب الساعة إلى مفهومه الوظيفي الذي يقيم الأعمال التي أنجزت في مثل

هذه الفترات الزمنية، وتغير التراب من مفهومه من تراب ينتج بلا قيود أو شروط حاجات البشر، وأن الحضارة ليس تكديسا للأشياء ولكنها بناء وهندسة تنمو بفعل التركيب الديني لعناصرها الثلاثة، ويكون هذا التركيب حيويا وتوسعا حينما يجسد فكرا جماعيا ولكنه يفقد رسالته التاريخية. (مولاي محمد سعيد، 1994: 301)

المشروع الاقتصادي للنهوض بالعالم الإسلامي حسب مالك بن نبي:

يواجه العالم الإسلامي مشكلات عويصة تقف حاجزا أمام نهضه ومن بينها مشكلة البناء الاقتصادي، باعتبارها بلدان متخلفة تحاول تدارك تخلفها، ولتحقيق هذا الغرض عليها أن تتبع مسار التنمية والتخطيط الاقتصادي، لتدارك التخلف بطرق فنية متسارعة، للحاق بالركب الاقتصادي للدول المتقدمة في فترات قصيرة مثل ألمانيا الغربية واليابان. (حسين يوسف، 1994: 357)

التخطيط كخطوة أولية للبناء الاقتصادي: يهدف التخطيط في بلد في طور النمو إلى تحريك كل الطاقات والموارد البشرية والمادية من أجل خلق ديناميكية اجتماعية واقتصادية، التي تعتمد على الإمكانيات والمقومات المتوفرة لعملية التخطيط التي تسبق عملية الانطلاق الاقتصادي.

يرى بن نبي الخطة أن تتوقع في إطارها المفاهيمي كما في إطارها التنفيذي كل الشروط المعنوية والمادية لنجاحها، وهي مجموعة شروط تتحدد تماما التقنية المعقدة للخطة، ولكن واحدا من هذه الشروط التي تمس مباشرة الجانب التقني للخطة هو وحدة المفهوم (مالك بن نبي، 1995: 31)، ويجب

على الخطة أن تكون موحدة وليست فسيفساء تجمع مشاريع صمم كل منها تصميمًا منفصلاً عن المشاريع الأخرى.

إن المخططين الاقتصاديين في البلدان الإسلامية يخطئون عندما ينصحون باتباع طريقة الاستثمار المالي، ويصيبون عندما ينصحون بالاستثمار الاجتماعي، فالاستثمار المالي في البلدان الإسلامية يعتمد على قوة الشراء، إذ تعد هذه الأخيرة ضعيفة جداً في البلدان الإسلامية أو معدومة (malekbennabi, 1989: 150)

وعليه فإن طريقتي الاستثمار تختلفان اختلافاً جذرياً، ليس من مبدأ التخطيط فقط ولكن من حيث النتائج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المترتبة عنها، فالاستثمار المالي يعتمد على المال، أما الثاني يعتمد على الطاقات الاجتماعية. (مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، 1979، 179)

والاستثمار المالي يقوم على الوسائل المفقودة في البلاد المتخلفة، وتلجأ إلى القروض الأجنبية، التي يتم استغلالها في أمور تافهة تتعارض مع الخطة التنموية، كأن يتم استغلالها في مهرجان للموسيقى بدلاً من استغلالها من أجل شق طريق أو بناء سد أو بناء مدرسة... ونظراً للصفات السلبية التي تمس طريقة الاستثمار المالي فإن بن نبي يؤكد أن القدرة الحقيقية لا توجد في القدرة المالية ولكن لابد التركيز على القدرة الاجتماعية ونستثمر ما نستطيع بالوسائل الموجودة بين أيدينا، والمعروف أن وسائل البلدان المتخلفة في ساعة الصفر من إقلاعها هي الفلاحة والمواد الأولية وعضلات المواطن وعزيمته.

يركز بن نبي على ضرورة الاهتمام بالقطاع الفلاحي، باعتباره القطاع الوحيد الذي قدم وسائل اقتصاد التنمية والقوت في الصين خلال مرحلة البناء الاقتصادي، مؤكداً ذلك بضرورة تنظيم القطاع الفلاحي لأي بلد متخلف لإنتاج أقصى ما يمكن من الغذاء وحل مشكلة القوت، حتى تتمكن هذه البلدان اقتناء ما تحتاجه من وسائل للتصنيع، خاصة إذا حققت اكتفاء داخلي ورغبتها في تصدير منتجاتها إلى البلدان المصنعة، أما المواد الأولية تمثل بالنسبة لأي بلد متخلف العملة ذات القيمة الدولية التي تمكنه من تجهيز صناعاته بالآلات الضرورية، وينصح بضرورة توحيد أسعارها في الأسواق العالمية حتى لا تخضع لسياسات المساومة أو تبخس قيمتها الشرائية في الأسواق العالمية، أما عضلات المواطن وسواعده، فيجب تشغيلها بفعالية وتصفيتهما من الجمود وعلى الإنسان المسلم أن يشمر على سواعده ويتعلم السير وحده نحو البناء الاقتصادي، ويقضي على عامل التبعية في نفسه وفكره وجهده، وهذا حسب المقولة التالية: ﴿يجب أن تاكل الأفواه كلها، ويجب أن تعمل سائر السواعده، وبدونها نظل في انتظار صدقة العدو﴾ (حسين يوسف، 1994: 357-358)

التحلي بالوعي الاقتصادي: قبل أن نتحدث عن الوعي الاقتصادي علينا أن نتطرق إلى مفهوم التنمية الاقتصادية، لقد تعددت تعريفات التنمية الاقتصادية بتعدد المدارس والاتجاهات والإيديولوجيات: فهي عملية انتقال المجتمع من حالة تخلف إلى حالة تقدم وتطور، وبذلك يحدث تغيير في الهياكل الاقتصادية، وزيادة في الطاقة الإنتاجية للموارد الاقتصادية. (دودين أحمد يوسف، 2011: 163).

يشير مالك بن نبي أن التنمية متطابقة مع فكرة الحضارة، في كتابه المسلم في عالم الاقتصاد، ﴿أن الحضارة هي التجسيم العيني الواقعي للاقتصاد القائمة على مجموع المقومات الروحية والمادية التي يتزود بها المجتمع أولاً ويوفرها للأفراد كضمانات للوجود والعيش، وإن فقد المجتمع قدرته على توفيرها حينئذ يسقط في التخلف ويكون أساس هذا السقوط هو الإنسان ذاته.﴾ ويضيف في نفس السياق أن التحديد الوظيفي يجعلنا نرى أن الحضارة جانبيين: الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية، في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية في صورة إمكان أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته، أي بالوظيفة الحضارية، فالحضارة هي هذه الإرادة وهذا الإمكان، وبهذا نستطيع التعبير عن الاقتصاد على أنه الصورة المحسنة لهذه الإرادة ولهذا الإمكان في ميدان خاص هو ميدان الاقتصاد. (مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، 1987: 61)

يتبدى لنا أن أزمة الحضارة عند الأمة الإسلامية تعود أساساً إلى عدم استغلال طاقتها الإنتاجية والاستثمار فيها في الميدان الاقتصادي، وهذا ما يغيب التنمية الاقتصادية في المجتمعات العربية الإسلامية، ما دفعها تعتمد على الاقتصاد الريعي، فتمسكها بعالم الأشياء يجعلها لا تخلق الأفكار، وإنما تنمو فيها روح الاتكال وتقليد الغير.

يؤكد بن نبي أن النهضة الحضارية مالم يتوفر لدينا الوعي الاقتصادي، الذي يعبر عن مجموعة من المقومات والفعاليات والمبادئ وأسس مركبة من أبعاد

نفسية روحية وأخلاقية واجتماعية وتربوية واقتصادية وسياسية، تكون ممنهجة على شكل أفعال في الفضاء العمومي، وتختمر فعاليتها في الممارسات الثقافية بين أفراد المجتمع، يتجلى هذا الإمكان من خلال فكرة التوجيه التي تعني: «قوة الأساس وتوافق الرأي ووحدة في الهدف»، وهي الفكرة الرئيسية لإعادة صناعة الذات صناعة تحتكم بدورها إلى منطق الوعي الثقافي والوعي الاقتصادي، وهو ما كان ينقص المجتمعات العربية الإسلامية لتحقيق إقلاع حضاري. (مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، 1987، 67).

فزوال الوعي الاقتصادي يعبر عن مؤشر انهيار القيم الحضارية وتفككها، وهذا ما يؤكد ما جاء به بن نبي بقوله: «مهما يكن فإننا نرى كيف يرتبط عالم الاقتصاد بالقيم الحضارية ارتباطا لا يمكن معه أن نتصور نجاح خطة اقتصادية، تقتنع بأرقام واحصائيات وأدوات مادية إن لم يكن إنجازها أخذا في الاعتبار قيمة الإنسان ذاته في رتبة القيمة الاقتصادية الأولى». (مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، 1987: 64).

إن بناء حضارة إنسانية إسلامية لا يتوقف فقط على القيام بالمشروع الاقتصادي وتحقيقه من الناحية العملية، لأن المجتمعات الغربية تبني مجتمعات لغايات اجتماعية وحياة أرضية، بينما العالم الإسلامي يبني للحياة وما بعدها، كما أن الحضارة الغربية هي مادية بالدرجة الأولى وتفتقر إلى القيمة الخلقية وإلى الدعوة إلى الخير... التي تدخل في إطار المشروع الأخلاقي لقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ سورة آل عمران 104، وعليه فإن امتثال الإنسان لأوامر ربه بالدعوة إلى الخير والتحلي

بالقيم الخلقية من شأنها المساهمة في ازدهار الحضارة. (حسين يوسف، 1984: 359).

الخاتمة: في ختام هذا العرض ومن خلال ما تم دراسته توصلنا إلى جملة من النتائج التي نذكر منها مايلي:

- إن الاقتصاد في فكر مالك بن نبي ليس علما نتعلمه ونقتضي به فقط، وإنما وعي وثقافة لا بد من التحلي به، لأنه جزءا هاما من جوهر الإنسان ويرتبط بالعوامل النفسية والأخلاقية أكثر منها عوامل مادية ووسائل، باعتبار أن أساس نجاح النهوض الاقتصادي هو رأسمال الاجتماعي (الإنسان، التراب، الوقت) بمعنية الفكرة الدينية أو ما يسمى بالعنصر الأخلاقي.
- إن المشكلة التي يعاني منها العالم الإسلامي حسب بن نبي ليس عدم امتلاكه للعناصر الثلاثة للمعادلة، وإنما عدم إدراكه وتفعيله للشروط المادية والأخلاقية، وتجسيده للاقتصادانية أي ان الاجتهاد يكون في إنفاق الأموال (الإمكان المادي) من أجل تشييد البنيات والمدارس، ويبحث عن الحلول من الحضارات الغربية، فاستراد الأفكار والثروات الذاتية هي منتجات هيكلية ليس لها أي هدف (الروح).
- إن الوقائع الاقتصادية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقيم الحضارية، وتحقيق النهوض الاقتصادي في العالم الإسلامي يكون انطلاقا من تغيير نفسية الإنسان وإدراكه لأهمية وجوده في هذا الكون، باعتباره يلعب دورا محوريا هاما في بناء حضارة الأمم.

- إن غياب الوعي الاقتصادي في المجتمعات العربية الإسلامية يجعلها تعتنق أفكار اقتصادية معينة، ولتحقيق نهوض حضاري عليها التمتع بالوعي الاقتصادي الذي يسهم في تنمية وتطوير أفكارها الاقتصادية ويحررها من تقليد الأفكار الغربية.
- يعد المشروع الحضاري لمالك بن نبي مشروعاً يحمل في طياته كل المقومات والمبادئ والأسس والركائز التي لو اتبعناها وعملنا وفقها لتوصلنا لما توصلت إليه المجتمعات المتقدمة، وعليه فإن الوقت حان لأخذ بطريقته في رؤيته للأمور وكيفية معالجتها، وقد سبق لنا وجربنا العديد من الطرق والمناهج من الشرق والغرب ولم تعمل على إيقاظنا وإنما عملت على تنويمنا وتخضيرنا.

المراجع:

- إزولي محمود، (2020). الفكر الاقتصادي عند مالك بن نبي المسلم في عالم الاقتصاد من أين يبدأ، مجلة الأكاديمية للعلوم الاجتماعية، المركز الجامعي إيليزي، العدد 105، المجلد 105، ص.ص. (394-405).
- بريون فوزية، (2010). مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ط1. دمشق: دار الفكر آفاق معرفة متجددة.
- حسين يوسف، (1994). واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم في فكر مالك بن نبي، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد الثالث، ص.ص. (352-359).
- دودين أحمد يوسف، (2011). سياسات التنمية الإدارية والاقتصادية في الوطن العربي: نظرياً وتطبيقياً، النمهال للنشر.
- مالك بن نبي، (1979). بين الرشاد والتهيه، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.

- مالك بن نبي، (1979). تأملات، ط1. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- مالك بن نبي، (1979). شروط النهضة، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- مالك بن نبي، (1984). مشكلة الثقافة، ط3. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- مالك بن نبي، (1987). شروط النهضة، ط3. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- مالك بن نبي، (1987). المسلم في عالم الاقتصاد، ط3. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- مالك بن نبي، (1995). من أجل التغيير، ط1. دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.
- مولاي محمد سعيد، (1994). إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي، مجلة المواقفات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد الثالث، ص. ص. (299-308).
- Malek ben nabi. (1989), pour change l'algérie, article de presse, société d'édition et de communication.